مِن الدَّاخِلِ يَبدَأُ السُّقُوطُ

دِرَاسَةٌ قُرآنِيَّةٌ تَحلِيلِيَّةٌ فِي البِنيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لانهِيَارِ العُمرَانِ وَالحَضَارَاتِ

◆ **الشيخ محمود علي سرائب**[1]

■ **خلاصة**

يتنـاول هـذا البحث ظاهرة السـقوط الحضاريّ في ضوء الرؤيـة القرآنيّة للسُّـنَن التاريخيّة والاجتماعيّـة، منطلقًا من أنَّ القرآن الكريم لا يفسّر انهيار العمران بوصفه حادثةً طارئةً أو نتيجةً خارجيّةً، بل بوصفه مسـارًا داخليًّا يبدأ من تغيّر المحتوى النفسيّ والقيميّ للإنسـان والجماعة. وتبحث الدراسة العلاقة بين التغيير الداخليّ، والفساد، والترف، والاستكبار، والظلم، والاستبدال الحضـاريّ، بوصفهـا حلقات مترابطة في قانون قرآنيّ يفسّر انهيـار الحضارات من داخلها قبل هزيمتها من خارجها. وتعتمد الدراسة المنهج التفسيريّ الموضوعيّ والتحليل السُّنَنيّ، مستندةً إلى نصوص الشـهيد السـيّد (محمد باقـر الصدر) في السُّـنَن التاريخيّة والمحتـوى الداخليّ للإنسـان، وإلى تفسـير العلاّمة (الطباطبـائي) للعلاقة بين الأعمال والحـوادث، وإلى ما عرضه الشـيخ (محسن الأراكي) في السُّـنَن الاجتماعيّة القرآنيّة، مع الإفادة من بعض الرؤى الحضاريّة عنـد (ابن خلـدون)، و(مالك بن نبي)، و(عبد الوهاب المسـيري). وتخلص الدراسـة إلى أنَّ السقوط الحضاريّ يبدأ من تغيّر النفس واختلال المنظومة القيميّة، ثم يتجلّى في الفساد والترف والاستكبار والظلم، حتى ينتهي إلى الاستبدال الحضاريّ وفقدان الأمّة دورها في حركة التاريخ.

الكلمات المفتاحية: السقوط الحضاريّ، السُّنَن التاريخيّة، التغيير الداخليّ، الفساد، الترف، الاستبدال الحضاريّ، العمران القرآنيّ.

---

١ - كاتب لبناني، ماجستير في الفقه والأصول من جامعة المصطفى ﷺ – قم، ماجستير في الفلسفة والإلهيات من جامعة آزاد.

Fall Begins from Within
Analytical Qur'anic Study of Internal Structure of Civilizations, Societies Collapse

◆ **Sheikh Mahmoud Ali Saraib**

Lebanese writer, Holding a Master's degree in Jurisprudence and Principles from Al-Mustafa University (PBUH) - Qom, and a Master's degree in Philosophy and Theology from Azad University.

■ Abstract

This research examines the phenomenon of civilizational decline in light of the Qur'anic perspective on historical and social laws. It proceeds from the premise that the Holy Qur'an does not interpret the collapse of a civilization as a random event or an external consequence; rather, it views it as an internal process originating in a shift within the psychological and value-based makeup of the individual and the community. The study examines the relationship between internal change, corruption, decadence, arrogance, injustice, and civilizational replacement, viewing them as interconnected links within a Qur'anic law that explains the collapse of civilizations from within, prior to their defeat from without. The study employs a thematic exegetical approach and an analysis of historical laws (sunan), drawing upon the writings of the martyr Sayyid Mohammad Baqir al-Sadr regarding historical laws and the inner human dimension; Allameh Tabataba'i's interpretation of the relationship between actions and events; and Sheikh Mohsen Araki's exposition of Qur'anic social laws. It also incorporates civilizational insights from Ibn Khaldun, Malek Bennabi, and Abdelwahab El-Messiri. The study concludes that civilizational decline begins with an internal shift in the human psyche and a disruption of the value system; this subsequently manifests as corruption, decadence, arrogance, and injustice, ultimately culminating in civilizational replacement and the nation's loss of its role in the course of history.

Keywords:

Civilizational Fall, Historical Laws [Sunan], Internal Change, Corruption, Luxury, Civilizational Replacement, Qur'anic Urbanism.

مقدّمة

لا يمكن دراسة سقوط الحضارات في ضوء القرآن الكريم بمعزل عن مفهوم السُّنَن التاريخيّة والاجتماعيّة؛ لأنَّ القرآن لا يعرض مصائر الأمم عرضًا قصصيًّا مجرّدًا، بل يجعلها ميدانًا لكشف القوانين التي تحكم حركة الإنسان في المجتمع والتاريخ. ومن هنا، تكتسب دراسة السقوط الحضاريّ أهمّيّتها؛ لأنّها لا تكتفي بوصف النهاية، بل تبحث في المسار الذي أفضى إليها.

وقد جعل الشهيد السيّد (محمد باقر الصدر) هذا المدخل أساسًا في قراءته للقرآن؛ إذ يقول في افتتاح بحثه عن سُنَن التاريخ: «الموضوع الأول الذي سوف نختاره للبحث هو «سُنَن التاريخ في القرآن الكريم»، هل للتاريخ البشريّ سُنَن في مفهوم القرآن الكريم؟ وهل له قوانين تتحكّم في مسيرته وفي حركته وتطوّره؟ وما هي هذه السُّنَن التي تتحكّم في التاريخ البشريّ؟ وكيف بدأ التاريخ البشريّ؟ وكيف نما؟ وكيف تطوّر؟ وما هي العوامل الأساس في نظريّة التاريخ؟ وما هو دور الإنسان في عمليّة التاريخ؟ وما هو موقع السماء أو النبوّة على الساحة البشريّة؟».[1]

ولا ينطلق هذا السؤال من فضول معرفيّ مجرّد، بل من وظيفة القرآن بوصفه كتاب هداية وتغيير؛ إذ يقرّر (الصدر) أنَّ القرآن «لم ينزل كتاب اكتشاف، بل كتاب هداية»، وأنّه «لم يطرح

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٤٢-٤٣.

نفسه بديلاً عن قدرة الإنسان الخلاّقة»، وإنّما «طرح نفسه طاقةً روحيّةً موجّهةً للإنسان، مفجّرةً طاقاته، ومحرّكةً له في المسار الصحيح». ولذلك يصبح البحث في سُنَن التاريخ جزءًا من وظيفة الهداية القرآنيّة.[1]

كما يميّز (الصدر) بين الجانب الربّانيّ للشريعة والجانب التاريخيّ لحركة الإنسان، فيقول: «عمليّة التغيير التي مارسها القرآن ومارسها النبي ﷺ لها جانبان من حيث صلتها بالشريعة وبالوحي، هي ربّانيّة، وهي فوق التاريخ ولكن من حيث كونها عملاً قائمًا على الساحة التاريخيّة، من حيث كونها جهدًا بشريًّا يقاوم جهودًا بشريّةً أخرى، من هذه الناحية يعتبر هذا عملاً تاريخيًّا تحكمه سُنَن التاريخ».[2]

ومن هنا، تنطلق هذه الدراسة للإجابة عن السؤال المركزيّ الآتي: إذا كانت حركة الإنسان في التاريخ محكومة بسُنن إلهيّة، فما القانون القرآنيّ الذي يفسّر سقوط الحضارات وانهيار العمران؟ وهل يبدأ السقوط من الخارج أم من الداخل، من تبدّل ما بالنفس واختلال المحتوى القِيَميّ؟

وتفترض الدراسة أنَّ القرآن الكريم يفسّر السقوط الحضاريّ بوصفه مسارًا داخليًّا يبدأ بتغيّر النفس قبل تغيّر الواقع الخارجيّ، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿**ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الأنفال: ٥٣].

وتتأكّد هذه الرؤية عند العلامة (الطباطبائي)؛ إذ يربط بين الأعمال والحوادث، ويقرّر أنَّ «الآيات ظاهرة في أنَّ بين الأعمال والحوادث ارتباطًا ما، شرًّا أو خيرًا».[3]

وعلى هذا الأساس لا تنظر الدراسة إلى السقوط الحضاريّ بوصفه نهاية سياسيّة أو

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٤٦.
٢ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٤٨.
٣ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٢، ص١٨١.

عسكريّة فحسب، بل بوصفه انهيارًا تدريجيًّا في البنية الداخليّة للعمران يبدأ من المحتوى النفسيّ والقِيَميّ، ثمّ يتجلّى في الفساد والترف والاستكبار والظلم، حتّى ينتهي إلى الاستبدال الحضاريّ وفقدان الأُمَّة فاعليّتها التاريخيّة.

أوّلًا: التغيير الداخليّ بوصفه القاعدة القرآنيّة المؤسِّسة لحركة العمران

يقوم التصوّر القرآنيّ لحركة العمران على قاعدة مركزيّة، هي أنَّ التغيير الخارجيّ تابع للتغيير الداخليّ. وهذه القاعدة لا تمثّل مجرّد توجيه خُلُقيّ، بل تمثّل قانونًا تاريخيًّا واجتماعيًّا يحكم مصائر الأمم والجماعات. ولذلك جعل الشهيد (الصدر) «المحتوى الداخليّ للإنسان» أساس حركة التاريخ.

يقول الشهيد (الصدر): «من الواضح على ضوء المفاهيم التي قرأناها سابقًا أنَّ الإنسان أو المحتوى الداخليّ للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ، وأنَّنا ذكرنا أنَّ حركة التاريخ تتميّز عن كل الحركات الأخرى بأنَّها حركة غائيّة لا سببيّة فقط، ليست مشدودة إلى سببها، وإلى ماضيها، بل هي مشدودة إلى الغاية؛ لأنَّها حركة هادفة لها علّة غائيّة متطلّعة إلى المستقبل».[1]

ومن هنا، يجعل (الصدر) الفكر والإرادة جوهر هذا المحتوى الداخليّ؛ إذ يقول: «وهذان الأمران، الفكر والإرادة، هما في الحقيقة المحتوى الداخليّ الشعوريّ للإنسان، إنَّ المحتوى الداخليّ الشعوريّ للإنسان يتمثّل في هذين الركنين الأساسَين، وهما الفكر والإرادة».[2]

ثمّ يصل إلى النتيجة المؤسِّسة لهذا القانون بقوله: «إذن المحتوى الداخليّ للإنسان هو الذي يصنع هذه الغايات، ويجسّد هذه الأهداف من خلال مزجه بين فكرة وإرادة. وبهذا صحّ القول إنَّ المحتوى الداخليّ للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ، والبناء الاجتماعيّ العلويّ

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٣٩.

٢ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤٠.

بكل ما يضمّ من علاقات ومن أنظمة ومن أفكار وتفاصيل هذا البناء العلويّ في الحقيقة مرتبط بهذه القاعدة».[١]

ويستند مباشرةً إلى آية ١١ من سورة الرعد، فيقول: «فالعلاقة بين المحتوى الداخليّ للإنسان والبناء الفوقيّ والتاريخيّ للمجتمع، هذه العلاقة علاقة تبعيّة، علاقة سبب بسبب، هذه العلاقة تمثّل سُنَّة تاريخيّة تقدّم الكلام عنها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾».[٢]

ويشرح الآية بقوله: «هذه الآية واضحة جدًّا في المفهوم الذي أعطيناه، وهو أنَّ المحتوى الداخليّ للإنسان هو القاعدة والأساس للبناء العلويّ، للحركة التاريخيّة؛ لأنَّ الآية الكريمة تتحدّث عن تغييرين: أحدهما تغيير القوم... هذه لا تتغيّر حتّى يتغيّر ما بأنفسهم».[٣]

ولا يقتصر هذا الفهم على التفسير القرآنيّ عند الشهيد (الصدر)، بل نجده أيضًا عند (مالك بن نبي) الذي يجعل من الآية الكريمة منطلقًا لفهم حركة التاريخ؛ إذ يقول: «إنَّنا نجد في القرآن الكريم النص المبدئيّ للتاريخ التكوينيّ (Bio-histoire): ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾، وينبغي ألّا نقرّر هذا المبدأ حسب إيماننا به فقط، بل يجب أن يكون تقريره في ضوء التاريخ».[٤]

ثم يضيف: «ونعم، لا تجدي كجواب عن السؤال المطروح أمامنا، إلّا إذا تأكّدنا من شرطين: أولهما: هل المبدأ القرآنيّ سليم في تأثيره التاريخيّ؟ ثانيهما: هل يمكن للشعوب الإسلاميّة تطبيق هذا المبدأ في حالتها الراهنة؟».[٥]

---

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤٠-١٤١.
٢ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤١.
٣ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤١-١٤٢.
٤ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٤٩.
٥ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٤٩.

وتبرز أهمية هذا النص في نقله الآية من دائرة الوعظ الفرديّ إلى مجال التفسير الحضاريّ للتاريخ، وهو ما يلتقي مع ما قرّره الشهيد (الصدر) من أنَّ التحوّلات الخارجيّة ليست إلّا نتائج للتحوّلات التي تقع في داخل الإنسان والمجتمع.

ويؤكّد العلامة (الطباطبائي) هذا المعنى من جهة العلاقة بين الأحوال النفسيّة والنعم والنقم؛ إذ يقول: «لأنَّ سنّته جرت ألّا يغيّر ما بقوم من الأحوال حتّى يغيّروا ما بأنفسهم من الحالات الروحيّة، كأن يغيّروا الشكر إلى الكفر، والطاعة إلى المعصية، والإيمان إلى الشرك، فيغيّر الله النعمة إلى النقمة، والهداية إلى الإضلال، والسعادة إلى الشقاء، وهكذا».[1]

ثم يقرّر أنَّ الآية تدلّ على «أنَّ الله قضى قضاءً حتمًا بنوع من التلازم بين النعم الموهوبة من عنده للإنسان وبين الحالات النفسيّة الراجعة إلى الإنسان الجارية على استقامة الفطرة»، فإذا تغيّرت تلك الحالات تغيّرت الأحوال الخارجيّة تبعًا لها.

ويؤكّد ذلك في تفسير آية الأنفال بقوله: «ولا تزول نعمة من النعم الإلهيّة ولا تتبدّل نقمة وعقابًا إلّا مع تبدّل محلّه، وهو النفوس الإنسانيّة، فالنعمة التي أنعم بها على قوم إنّما أفيضت عليهم لمّا استعدّوا لها في أنفسهم، ولا يسلبونها ولا تتبدّل بهم نقمة وعقابًا إلّا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد وملاك الإفاضة».[2]

ويأتي الشيخ (الأراكي) ليجعل هذه السُّنَن جزءًا من البيان القرآنيّ الضروريّ، فيقول: «إنَّ من أهمّ ما تصدّى له الوحي الإلهيّ المتمثّل في كتاب الله المجيد هو بيان القوانين والسُّنَن التي تحكم المجتمع الإنسانيّ في تطوّره منذ بداية تكوينه حتّى الغاية التي لا بدّ أن يصل إليها في مسيرته الكادحة إلى الله».[3]

ثم يضيف أنَّ دراسة هذه السُّنَن ضرورة للمجتمع الإسلاميّ «ليتسنَّى لمجتمعنا الإسلاميّ

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١١، ص٣١٠.
٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٩، ص١٠١.
٣ - محسن الأراكي: سنن التطور الاجتماعي في القرآن الكريم، ص٥.

أن يخطو خطواته نحو الأمام ببصيرة ووعي، وألّا يكرّر أخطاء الماضين».[1]

ومن مجموع هذه النصوص يتّضح أنَّ التغيير الداخليّ ليس مجرّد قاعدة خُلُقيّة، بل هو قانون حضاريّ يفسّر حركة العمران وصيرورة المجتمعات. فالسقوط لا يبدأ حين تفقد المؤسّسات قوّتها الظاهرة، بل حين يتغيّر المحتوى الذي يمنحها معناها واتّجاهها. ومن هنا، يصبح السقوط الخارجيّ نتيجة متأخّرة لمسار بدأ في النفس، في الفكر والإرادة والمثل الأعلى والقدرة على الاستجابة للحقّ، ولذلك لا يكون السؤال القرآنيّ: من غلب الحضارة من الخارج؟ بل: ماذا تغيّر في داخلها حتّى أصبحت قابلة للهزيمة والانهيار؟

ثانيًا: الفساد بوصفه نظامًا يعيد تشكيل العمران من داخله

إذا كان التغيير الداخليّ يمثّل القاعدة التأسيسيّة لحركة التاريخ في الرؤية القرآنيّة، فإنَّ الفساد يمثّل أوّل تجلّيات هذا التغيير عندما ينتقل من المستوى النفسيّ والقيميّ إلى المستوى الاجتماعيّ والحضاريّ. فالقرآن لا يتعامل مع الفساد بوصفه مجرّد ذنب فرديّ، بل يقدّمه باعتباره ظاهرة تاريخيّة قادرة على إعادة تشكيل العمران من داخله وتحويل المجتمع تدريجيًّا من الصلاح إلى الانهيار.

ومن هنا، فإنّ الانتقال من التغيير الداخلي إلى الفساد هو انتقال من السبب إلى النتيجة؛ فحين تفقد الجماعة انسجامها مع الفطرة والحق والعدل، يظهر ذلك في صورة فساد اجتماعيّ وسياسيّ وخُلُقيّ واقتصاديّ، ثمّ يتحوّل تدريجيًّا إلى بنية حضاريّة شاملة.

وهذا ما أكّده العلاّمة (الطباطبائي) في تفسيره لآيات السُّنن الاجتماعيّة حين قرّر وجود رابطة حقيقيّة بين الأعمال والحوادث التاريخيّة، فقال: «الآيات ظاهرة في أنَّ بين الأعمال والحوادث ارتباطًا ما شرًّا أو خيراً». ثمّ جعل من آيتي الأعراف والروم قاعدة جامعة لهذا

١ - محسن الأراكي: سنن التطور الاجتماعي في القرآن الكريم، ص٥.

القانون: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]، و﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١].[١]

ويشرح (الطباطبائي) هذه العلاقة بقوله: «فالحوادث الكونيّة تتبع الأعمال بعض التبعيّة، فجرى النوع الإنسانيّ على طاعة الله سبحانه وسلوكه الطريق الذي يرتضيه يستتبع نزول الخيرات وانفتاح أبواب البركات، وانحراف هذا النوع عن صراط العبوديّة وتماديه في الغيّ والضلالة وفساد النيّات وشناعة الأعمال يوجب ظهور الفساد في البرّ والبحر وهلاك الأمم».[٢]

ويكتسب هذا النص أهميّة خاصّة؛ لأنّه يربط الفساد مباشرة بانحراف الإنسان عن مقتضيات العبوديّة والفطرة، ويجعله التعبير الخارجيّ عن اضطراب البنية الداخليّة للأمّة. كما أنَّ (الطباطبائي) لا يحصر آثار الفساد في المجال الخُلُقيّ، بل يوسّع دائرته لتشمل العمران كلّه، فيقول إنّ ذلك يؤدّي إلى: «الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله».[٣]

١- الفساد بين الإنسان والكون

من أعمق ما يقدّمه القرآن في هذا المجال أنّه لا يفصل بين الإنسان والكون، بل ينظر إلى العالم بوصفه منظومة مترابطة تتأثّر أجزاؤها بعضها ببعض. ولذلك، فإنّ فساد الإنسان لا يبقى محصورًا في دائرة السلوك الفرديّ، بل ينعكس على النظام الاجتماعيّ والكونيّ الذي يعيش فيه.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، يقول (الطباطبائي): «العالم بما فيه من الأجزاء متعلّق الأبعاض مرتبط الأطراف يتّصل بعضها ببعض اتّصال أعضاء بدن واحد وأجزائه بعضها ببعض في صحّتها وسقمها واستقامتها

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٢، ص١٨١.
٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٢، ص١٨١.
٣ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٢، ص١٨١.

في صدور أفاعيلها وقيامها بالواجبات من أعمالها».[1]

ثمّ يضيف: «فالأمّة من الأمم إذا انحرفت عن صراط الفطرة انحرافًا يصدّها عن السعادة الإنسانيّة التي قُدّرت غاية لمسيرها في الحياة كان في ذلك اختلال حال غيرها ممّا يحيط بها من الأسباب الكونيّة المرتبطة بها».[2]

ويمثّل هذا النص أحد المفاتيح الأساس لفهم السقوط الحضاريّ في القرآن؛ إذ يجعل الفساد نتيجة لاختلال العلاقة بين الإنسان والفطرة، ويجعل آثاره ممتدّة إلى مجمل النظام الاجتماعيّ والكونيّ.

ثم يبيّن مظاهر هذا الفساد بقوله: «وعند ذلك تظهر اختلالات في اجتماعاتهم، ومِحَن عامّة في روابطهم العامّة كفساد الأخلاق، وقسوة القلوب، وفقدان العواطف الرقيقة، وتهاجم النوائب، وتراكم المصائب والبلايا الكونيّة».

٢- الفساد بوصفه فقدانًا للقدرة على الإصلاح

لا يقف القرآن عند تشخيص الفساد، بل يكشف عن أخطر مراحله، وهي المرحلة التي يفقد فيها المجتمع القدرة على إدراك فساده، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١].

فالفساد هنا لم يعد مجرّد ممارسةٍ منحرفةٍ، بل أصبح رؤيةً مشوّهةً للواقع؛ إذ تفقد الأمّة قدرتها على التمييز بين الإصلاح والإفساد. ومن ثمّ يصبح الفساد بنيةً فكريّةً وثقافيّةً قبل أن يكون بنيةً سياسيّةً أو اقتصاديّةً.

وقد أشار الشهيد (الصدر) إلى هذه الحقيقة حين جعل المحتوى الداخليّ للأمّة أساس البناء الاجتماعيّ كلّه، مستشهدًا بقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا...**

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٨، ص١٩٥-١٩٦.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٨، ص١٩٦.

﴿وَإِذا تَوَلّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

ثم يعلّق قائلاً: «إذا لم ينفذ بعمليّة التغيير إلى قلبه، إلى أعماق روحه، إذا لم يبنِ نفسه بناءً صالحًا لا يمكنه أبدًا أن يطرح الكلمات الصالحة... فتبقى الكلمات مجرّد ألفاظ جوفاء دون أن يكون لها مضمون ومحتوى».[1]

وهنا يربط (الصدر) بين الفساد الحضاريّ وبين انفصال الخطاب عن الواقع، والشعار عن المضمون، والكلمة عن القلب.

٣- الفساد بداية السقوط لا نهايته

ومن مجموع النصوص القرآنية والتفسيريّة يتّضح أنَّ القرآن لا يَعُدّ الفساد نتيجةً للسقوط الحضاريّ، بل بدايته الحقيقية. فحين يظهر الفساد يكون المجتمع قد دخل بالفعل في مسار الانهيار، حتى لو بقيت مظاهر القوّة والعمران قائمة. ولهذا جاء التعبير القرآنيّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ﴾ ليشير إلى تحوّله إلى ظاهرةٍ عامّةٍ تشمل الاجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة.

ومن هنا، لا يربط القرآن سقوط الأمم أوّلاً بفقدان القوّة، بل بفساد البنية الداخليّة التي تمنح تلك القوّة معناها واتجاهها. وعندما يصبح الفساد نظامًا يعيد إنتاج نفسه داخل المجتمع، يبدأ العمران بفقدان شروط بقائه، وتبدأ الحضارة بالانتقال إلى المرحلة التالية من مراحل السقوط، وهي مرحلة الترف والاستكبار.

ثالثًا: الترف والاستكبار بوصفهما مرحلة ما قبل السقوط الحضاريّ

إذا كان الفساد يمثّل إعادة تشكيل البنية الاجتماعيّة من الداخل، فإنَّ الترف والاستكبار يمثّلان المرحلة التي تبلغ فيها الحضارة درجة من التشبّع المادّيّ تجعلها تبدأ بفقدان مناعتها

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤٤.

الداخليّة. ولهذا لا يربط القرآن الكريم السقوط الحضاريّ بمرحلة الفقر أو الضعف، بل يربطه في كثير من الأحيان بمرحلة القوّة والرخاء والازدهار. فالحضارة في المنظار القرآنيّ لا تسقط؛ لأنّها افتقرت إلى القوّة، بل قد تسقط؛ لأنّها أساءت توظيف القوّة التي امتلكتها.

ومن هنا تكتسب ظاهرة الترف أهميّةً خاصّةً في تحليل القرآن لمسار الأمم؛ لأنّها تمثّل نقطة التحوّل التي تنتقل فيها النعمة من كونها وسيلة للعمران إلى كونها أداة للتفكّك والانهيار.

ومن أهم النصوص القرآنية المؤسِّسة لفهم العلاقة بين الترف والسقوط الحضاريّ قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦].

وقد تناول العلاّمة (الطباطبائي) هذه الآية في سياق بيانه للسُّنن التي تحكم هلاك المجتمعات، فرفض أنْ يُفهم الهلاك بوصفه حدثًا منفصلاً عن أسبابه، وقرّر أنَّ المراد بالإرادة الإلهيّة يمكن أن يكون «الإرادة الفعليّة»، وحقيقتها: «توافق الأسباب المقتضية للشيء وتعاضدها على وقوعه»، ثمّ يبيّن أنَّ حقيقة ذلك هي: «تحقّق ما لهلاكهم من الأسباب وهو كفران النعمة والطغيان بالمعصية».[1]

يكشف هذا النص عن بُعدٍ سُنَنيّ واضح في تفسير الآية؛ إذ إنَّ الهلاك لا يقع ابتداءً، بل يأتي بعد تحقّق أسبابه الداخليّة. فالسقوط الحضاريّ لا يبدأ من لحظة التدمير، وإنّما يبدأ من كفران النعمة، ثم يتطوّر إلى الطغيان والفساد حتى تبلغ الأمّة مرحلةَ استحقاق الهلاك.

كما يناقش (الطباطبائي) معنى قوله تعالى: ﴿**أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا**﴾، ويذكر من الوجوه المحتملة في تفسير الآية أنْ يكون المراد: «الإكثار من إفاضة النِّعَم عليهم وتوفيرها على سبيل الإملاء والاستدراج وتقريبهم بذلك من الفسق حتى يفسقوا فيحقّ عليهم القول وينزل عليهم العذاب».[2]

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٣، ص٦٠.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٣، ص٦٠.

ويكتسب هذا التحليل أهمّيّة خاصّة في دراسة السقوط الحضاريّ؛ لأنّه يجعل النعمة نفسها جزءًا من الامتحان التاريخيّ للأمم. فالخطر لا يكمن في وجود النعمة، وإنّما في تحوّلها إلى أداة للاستدراج عندما تنفصل عن الشكر، ويتحوّل التوسّع في أسباب القوّة إلى مدخل للطغيان والفساد.

ومن اللافت أنَّ (الطباطبائي) ينقل عن (الراغب الأصفهاني) أنَّ «التَّرَفة: التوسّع في النعمة»، كما ينقل عن (ابن عرفة) أنَّ «المُتْرَف المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع منه». وهذه الإشارات تكشف أنَّ الترف في المنظار القرآنيّ لا يقتصر على كثرة المال، بل يشمل حالة الانفلات من الضوابط التي تضبط السلوك الفرديّ والاجتماعيّ.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا**﴾ [الإسراء: ١٦]، يربط (سيد قطب) بين الترف وبين بداية التحلّل الحضاريّ، فيقول: «والمترفون في كل أُمّة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدَّعة وبالراحة وبالسيادة، حتّى تترهّل نفوسهم وتأْسَن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدّسات والكرامات... ومن ثمّ تتحلّل الأُمّة وتسترخي، وتفقد حيويّتها وعناصر قوّتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحتها».[1]

ويؤكّد (سيد قطب) أنَّ الهلاك لا يقع بصورة اعتباطيّة، بل وفق قانون اجتماعيّ وسُنّة تاريخيّة، فيقول: «إنَّ إرادة اللَّه قد جعلت للحياة البشريّة نواميس لا تتخلّف، وسُنَنًا لا تتبدّل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة اللَّه وتحقّ كلمته... لكن وجود المترفين في ذاته دليل على أنَّ الأُمّة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأنَّ قدر اللَّه سيصيبها جزاءً وفاقًا».[2]

يكشف هذان النصّان أنَّ الترف ليس ظاهرة اقتصاديّة فحسب، بل حالة حضاريّة تؤدّي إلى

١ - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٢١٧.

٢ - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٢١٨.

فقدان الحيويّة الخُلُقيّة والاجتماعيّة للأُمّة، وأنَّ السقوط لا يقع فجأة، بل نتيجة مسار طويل من الانحلال الداخليّ.

ويتقاطع هذا الفهم مع التحليلات الحضاريّة التي تربط أفول المجتمعات بتحوّل الوسائل إلى غايات، وفقدان الفكرة المُؤسِّسة قدرتها على توجيه السلوك الجماعيّ، وهو ما يجعل الترف تعبيراً عن اختلال الغايات أكثر من كونه مجرّد وفرة في الوسائل.

١- من الترف إلى الاستكبار

لا يقف مسار السقوط الحضاريّ عند حدود الترف، بل ينتقل إلى مرحلة أشدّ خطورة هي مرحلة الاستكبار؛ لأنَّ الترف يفسد علاقة الإنسان بالنعمة، أمّا الاستكبار فيفسد علاقته بالحقيقة نفسها. ولهذا يربط القرآن الكريم بين الاستكبار وبين مجادلة الحقّ ورفضه رغم وضوحه، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ**﴾ [غافر: ٥٦].

وقد بيّن العلامة (الطباطبائي) أنَّ الدافع الحقيقيّ وراء هذا الجدل ليس البحث عن الحقيقة ولا الارتياب العلميّ، بل حالة نفسيّة كامنة في داخل الإنسان؛ إذ يقول: «ليس عاملهم في ذلك طلب الحقّ أو الارتياب في آياتنا والشكّ فيها حتّى يريدوا بها ظهور الحقّ ولا حجّة ولا سلطان عندهم حتّى يريدوا إظهارها، بل الذي في صدورهم وهو الداعي لهم إلى الجدال، الكِبر، يريدون به إدحاض الحقّ الصريح».[1]

ويكشف هذا النصّ عن حقيقة بالغة الأهمّيّة في تفسير السقوط الحضاريّ؛ فالأزمة لا تبدأ دائمًا من الجهل بالحقّ، بل قد تبدأ من رفض الحقّ بعد ظهوره. وعند هذه المرحلة يتحوّل الاستكبار من صفة خُلُقيّة فرديّة إلى ظاهرة حضاريّة تعطّل قدرة المجتمع على المراجعة

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٧، ص٣٤١.

والتصحيح؛ لأنَّ المشكلة لم تعد في غياب الدليل، بل في امتناع النفس عن التسليم له.

ويقترب (سيد قطب) من هذا المعنى حين يصف الاستكبار بأنّه انفصال الإنسان عن حقيقته الوجوديّة، فيقول: «إنّ هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة، ينسى أنّه كائن صغير ضعيف، يستمدّ القوّة لا من ذاته، ولكن من اتّصاله بمصدر القوّة الأوّل... من الله. فيقطع اتّصاله هذا ثمّ يروح ينتفخ، ويورم، ويتشامخ، ويتعالى... يحيك في صدره الكبر».[1]

ثمّ يربط (سيد قطب) بين الكبر وبين مجادلة الحق، مؤكّدًا أنّ الإنسان قد يتوهّم أنّ دافعه هو البحث والنقاش، بينما الدافع الحقيقي أعمق من ذلك، فيقول: «وهو يزعم لنفسه وللنّاس أنّه إنّما يناقش لأنّه لم يقتنع، ويجادل لأنّه غير مستيقن... والله العليم بعباده، السميع البصير المطّلِع على السرائر، يقرّر أنّه الكبر. والكبر وحده. هو الّذي يحيك في الصدر. وهو الّذي يدعو صاحبه إلى الجدال في ما لا جدال فيه».[2]

ومن خلال هذين النصّين يتبيّن أنّ الاستكبار في الرؤية القرآنيّة ليس مجرّد شعور بالتّفوّق، بل هو انحراف في البنية الداخليّة للوعي يجعل الإنسان غيرَ قادرٍ على الانقياد للحقيقة حتّى بعد معرفتها. ولهذا كان الاستكبار من أخطر مراحل السقوط الحضاري؛ لأنّه يعطّل الآليّة الّتي تستطيع الأمم من خلالها مراجعة أخطائها وتصحيح مسارها.

٢- الاستكبار وتعطيل آليّات التصحيح

إنّ الحضارة ما دامت قادرة على مراجعة نفسها وتصحيح أخطائها فإنّها تستطيع تجاوز كثير من عوامل الضعف، أمّا حين يتحوّل الشعور بالقوّة إلى استكبار يمنع النّقد الذاتي ويعطّل المراجعة، فإنّ المجتمع يبدأ بفقدان أهمّ وسائل بقائه واستمراره.

١ - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٥، ص٣٠٨٩.
٢ - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٥، ص٣٠٨٩.

ولهذا يربط القرآن الكريم الاستكبار بالمجتمعات الّتي بلغت ذروة القوّة والنفوذ، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فالآية لا تصف حالة ضعف أو عجز، بل تصف شعورًا مفرطًا بالقوّة انتهى إلى الاستعلاء على الحق. ومن هنا لا تكون المشكلة في امتلاك القوّة نفسها، بل في تحوّلها إلى مصدر للغرور يمنع الأمّة من رؤية مواطن الخلل في داخلها.

وفي تحليل قريب من هذا المعنى يبيّن (ابن خلدون) أنّ الدول لا تسقط عادة في مرحلة نشأتها الأولى، بل يبدأ الضّعف بالتّسلّل إليها بعد الانتقال من البداوة والخشونة إلى الحضارة والتّرف. ويقرّر أنّ الجيل الأوّل «لا يزالون على خلق البداوة وخشونتها وشظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبيّة محفوظة فيهم».[١]

ثمّ يصف التّحوّل الّذي يصيب الدولة في الجيل الثاني فيقول: «تحوّل حالهم بالملك والتّرفّه من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى التّرف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه».[٢]

أمّا الجيل الثّالث فإنّه يبلغ مرحلة أكثر خطورة؛ إذ يقول: «ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبيّة... ويبلغ فيهم التّرف غايته بما تنعّموا به من النّعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة ومن جملة النّساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبيّة بالجملة».

ويكشف تحليل (ابن خلدون) أنّ التّرف لا يضعف الموارد فحسب، بل يضعف العصبيّة والروح الّتي قامت عليها الدولة، حتّى تدخل مرحلة الهرم الحضاري الّتي تنتهي بتراجع قدرتها على البقاء والاستمرار. ولهذا يقرّر: «فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتّخلّفها».[٣]

١ - عبد الرحمن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٧١.
٢ - عبد الرحمن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٧١.
٣ - عبد الرحمن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٧٢.

وإذا جمعنا بين التحليل الخلدونيّ والرؤية القرآنيّة أمكن القول إنَّ الترف يمثّل التحوّل في نمط الحياة، بينما يمثّل الاستكبار التحوّل في نمط الوعي. فالترف يضعف الفاعليّة الاجتماعيّة، والاستكبار يعطّل القدرة على النقد والمراجعة، وكلاهما يشكّلان معًا مرحلةً متقدّمةً من مراحل السقوط الحضاريّ الداخليّ الذي يسبق الانهيار الظاهر للأمم والدول.

٣- الترف والاستكبار بوصفهما إنذارًا حضاريًّا

لا يعرض القرآن هذه السُّنن للتسجيل التاريخيّ، بل للكشف عن آليّات السقوط قبل وقوعه. فالترف والاستكبار يمثّلان إنذارًا مبكّرًا لانحدار الأمم؛ إذ تتحوّل النعمة إلى أداةٍ للفسق، والنجاح إلى مبرّرٍ للاستعلاء، وتفقد الأُمّة قدرتها على مراجعة ذاتها.

ومن هنا، لا تبدأ الحضارات بالسقوط حين تُهزم، بل حين تتوهّم أنَّها لم تعد قابلةً للهزيمة.

رابعًا: الظلم وانفصال القوَّة عن القِيَم: لحظة الانهيار غير المرئيّ

إذا كان الفساد يمثّل بداية الاختلال الداخليّ، وكان الترف والاستكبار يمثّلان المرحلة التي تفقد فيها الحضارة قدرتها على المراجعة والتصحيح، فإنَّ الظلم يمثّل المرحلة التي تكتمل فيها أسباب السقوط التاريخيّ. ولذلك يحتلّ موقعًا مركزيًّا في السُّنن القرآنيّة الحاكمة لحركة الأمم؛ لأنَّ الهلاك لا يأتي اعتباطًا، بل بعد تحقّق أسبابه الاجتماعيّة والخُلُقيّة.

ومن أعمق الآيات الدالّة على هذه السنّة قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود: ١١٧]. وقد أوضح العلاّمة (الطباطبائي) أنَّ الآية تكشف عن سُنّة إلهيّة عامّة في الاجتماع الإنسانيّ؛ إذ يقول: «أي لم يكن من سُنّته تعالى إهلاك القرى التي أهلها مصلحون؛ لأنَّ ذلك ظلم، ولا يظلم ربّك أحدًا».[١]

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١١، ص٦٠.

ويكتسب هذا النصّ أهميّةً خاصّةً في بناء النظريّة القرآنيّة للسقوط الحضاريّ؛ لأنَّه يجعل وجود الإصلاح مانعًا من الهلاك، ويجعل الظلم العاملَ الذي يرفع هذا المانع. فالمجتمع لا يهلك لمجرّد وقوع الخطأ أو النقص فيه، وإنَّما يهلك عندما يفقد قدرته على الإصلاح، وتتحوّل الانحرافات إلى بنيةٍ مستقرّةٍ تعيد إنتاج نفسها.

ويتأكّد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢]. وفي تفسير هذه الآية يقرّر (الطباطبائي) أنَّ أخبار الأمم السابقة ليست حوادث منفصلة، بل نماذجَ لقانون عام، فيقول: «والمعنى: كما أخذ الله سبحانه هؤلاء الأمم الظالمة: قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون أخذًا أليمًا شديدًا، كذلك يأخذ سائر القرى الظالمة إذا أخذها، فليعتبر بذلك المعتبرون».[١]

ويكشف هذا النصّ أنَّ الظلم ليس وصفًا عارضًا للهالكين، بل القاسم المشترك الذي يجمع مصائر الأمم التي انتهت إلى السقوط. ومن هنا، فإنَّ القرآن لا يفسّر انهيار الحضارات من زاوية الضعف العسكريّ أو الاقتصاديّ فقط، بل من زاوية علاقتها بالعدل والحقّ والإصلاح.

ويؤكّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا**﴾ [الكهف: ٥٩]. وقد بيّن (الطباطبائي) أنَّ الآية تشير إلى سُنّة متكرّرة في تاريخ الأمم؛ إذ يقول: «السنّة الإلهيّة في الأمم الماضية الذين أهلكهم الله لمّا ظلموا كانت جارية على ذلك، فكان الله يهلكهم ويجعل لمهلكهم موعدًا».[٢]

ومن اللافت في هذا النصّ أنَّ الظلم لا يؤدّي إلى الهلاك بصورةٍ فوريّةٍ، بل يجري ضمن مسار تاريخيّ له أجل وموعد. وهذا يكشف أنَّ السقوط الحضاريّ ليس حدثًا مفاجئًا، وإنَّما نتيجةٌ تتدرّج أسبابها عبر الزمن حتى تبلغ مرحلة الانكشاف النهائيّ.

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١١، ص٧.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٣، ص٣٣٥.

١- الظلم وتعطيل وظيفة العمران

لا يقتصر الظلم في القرآن على بُعده الخُلُقيّ، بل يمتدّ إلى بُعد عمرانيّ مباشر؛ لأنَّ وظيفة الإنسان في الأرض قائمة على الاستخلاف وإقامة العدل. ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ**﴾ [النحل: ٩٠].

فالظلم لا يستهلك الحقوق فحسب، بل يستهلك الطاقات أيضًا؛ إذ يضعف الثقة العامة، ويقوِّض الروابط الاجتماعية، ويدفع الكفاءات إلى الانكفاء. ومن هنا أكَّد الشهيد السيّد (محمد باقر الصدر) أنَّ السُّنَن التاريخية لا تجامل أحدًا، وأنَّ المجتمع الذي يخرج عن مقتضيات الحق والعدل يضع نفسه في مواجهة النتائج الموضوعية لهذا الخروج. ولذلك لا يمثّل الظلم مجرّد خطيئة خُلُقية، بل خطأً استراتيجيًّا في إدارة المجتمع والتاريخ.

٢- الإصلاح بوصفه مانعًا من السقوط

وتبرز أهمية قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود: ١١٧] في أنَّ النجاة لا ترتبط بمجرد الصلاح الفرديّ، بل بوجود قوّة إصلاح اجتماعيّ قادرة على مقاومة الفساد والظلم. ولذلك جاء التعبير القرآنيّ بـ «مصلحون» لا «صالحون».

فالمشكلة في المنظور القرآنيّ ليست وجود الأخطاء والانحرافات بحدّ ذاتها، بل غياب القدرة على معالجتها وتصحيحها. وعندما يفقد المجتمع هذه القدرة يبدأ بالدخول في المرحلة الأخيرة من الانحدار الحضاريّ.

٣- من الظلم إلى تحلُّل الشرعية الخُلُقية

إنَّ أخطر ما يفعله الظلم بالحضارات أنَّه لا يدمّر المؤسسات أولاً، بل يدمّر الشرعية الخُلُقيّة التي تستند إليها المؤسسات. فقد يبقى الجيش قائمًا، والاقتصاد عاملاً، والمؤسّسات فاعلة، لكن المجتمع يفقد الإيمان الداخلي بمشروعية النظام الذي يحكمه، وعندها يبدأ

التآكل من الداخل وإن بقيت الأبنية قائمة في الظاهر.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بصورة رمزية عميقة في قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ**﴾ [التوبة: ١٠٩].

ويستفاد من تفسير (الطباطبائي) أنَّ الانهيار لا يبدأ من سقوط البنيان الظاهر، بل من الخلل الكامن في أساسه؛ إذ يمثّل المؤمن نموذج البناء القائم على «تقوى الله وابتغاء رضوانه عن يقين»، بينما يمثّل المنافق نموذج البناء «المبنيّ على التزلزل والشك». وينطبق هذا المبدأ على الحضارات؛ إذ قد تبدو قوية ومتماسكة بينما تكون أسسها الخُلُقيّة قد بدأت بالتآكل منذ زمن بعيد.[1]

ولهذا فإنَّ القرآن يجعل الظلم من أخطر مؤشّرات السقوط؛ لأنَّه يكشف عن لحظة انفصال القوة عن القيم، وهي اللحظة التي تبدأ فيها الحضارة بفقدان معناها قبل أن تفقد أدواتها.

٤- الظلم بوصفه المرحلة الأخيرة قبل الانكشاف التاريخيّ

وإذا جمعنا بين الآيات السابقة أمكن القول إنَّ الظلم يمثّل المرحلة التي تكتمل فيها عناصر السقوط الداخليّ؛ فالتغيير الداخليّ يولّد الفساد، والفساد يقود إلى الترف، والترف يولّد الاستكبار، والاستكبار ينتهي إلى الظلم. وعند هذه المرحلة يصبح الانهيار الخارجيّ مسألة وقت؛ لأنَّ المجتمع يكون قد استنفد عناصر بقائه الذاتية.

ومن هنا لا يقدّم القرآن الظلم بوصفه خطأً فرديًّا أو خُلُقيًّا فحسب، بل بوصفه مؤشّرًا على أنَّ البنية الداخلية للعمران بدأت تفقد قدرتها على الاستمرار. ولذلك، فإنَّ الأمم لا تُهزم أولاً، بل تسقط خُلُقيًّا وقِيَميًّا من الداخل، ثم تأتي الهزيمة الخارجية بوصفها لحظة الانكشاف التاريخيّ لذلك السقوط.

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٩، ص٣٩١.

خامسًا: الاستبدال الحضاريّ وسُنَن تداول الأمم: النتيجة التاريخية للسقوط الداخليّ

بعد أن بيّنت الآيات القرآنيّة أنَّ السقوط الحضاريّ يبدأ من التغيير الداخليّ، ثمّ يتجسّد في الفساد والترف والاستكبار والظلم، ينتقل القرآن الكريم إلى بيان النتيجة التاريخيّة المترتّبة على اكتمال هذا المسار، وهي سُنّة الاستبدال الحضاريّ. وتمثّل هذه السُنّة إحدى أهمّ السُّنَن الحاكمة لحركة التاريخ؛ لأنّها تكشف أنَّ بقاء الأمم في موقع الفاعليّة الحضاريّة ليس أمرًا ثابتًا، بل يرتبط بالمقوّمات الداخليّة التي تحفظ قدرتها على أداء دورها التاريخيّ.

وفي هذا السياق يربط الشهيد السيّد (محمد باقر الصدر) بين التحوّلات التاريخيّة الكبرى وبين المحتوى الداخليّ للأمّة، مستندًا إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. ويقرّر أنَّ الآية الكريمة تتحدّث عن مستويين من التغيير، فيقول: «هذه الآية واضحة جدًّا في المفهوم الذي أعطيناه وهو أنَّ المحتوى الداخليّ للإنسان هو القاعدة والأساس للبناء العلويّ، للحركة التاريخيّة؛ لأنَّ الآية الكريمة تتحدّث عن تغييرين: أحدهما تغيير القوم... هذه لا تتغيّر حتى يتغيّر ما بأنفسهم».[١]

ثم يوضّح أنَّ المقصود ليس التغيّر الفرديّ المحدود، بل التحوّل الذي يصيب الأمّة في بنيتها النفسيّة والثقافيّة والحضاريّة، فيقول: «فالمحتوى النفسيّ والداخليّ للأمّة بوصفها أمّةً لا لهذا الفرد أو لذلك الفرد هو الذي يعتبر أساسًا وقاعدةً للتغييرات في البناء العلويّ للحركة التاريخيّة كلّها».[٢]

ويكشف هذا النص أنَّ التحوّلات التي تنتهي إلى صعود الأمم أو سقوطها لا تبدأ من الخارج، بل من الداخل؛ لأنَّ البناء الاجتماعيّ والسياسيّ والحضاريّ ليس إلا انعكاسًا

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤١.

٢ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤٢.

للمحتوى الكامن في الأمّة نفسها. ومن هنا، فإنَّ الاستبدال الحضاريّ لا يأتي بوصفه حادثةً مفاجئةً أو عقوبةً منفصلةً عن الواقع، بل نتيجةً لمسار طويل من التغيّرات التي تصيب البنية الداخليّة للمجتمع حتى يفقد شروط استمراره التاريخيّ. ولهذا يؤكّد الشهيد (محمد باقر الصدر) أنَّ البناء الخارجيّ لا يستطيع الاستمرار إذا انفصل عن الأساس الداخليّ الذي يمنحه الثبات؛ إذ يقول: «لا يمكن أن يفترض انفكاك البناء الخارجيّ عن البناء الداخليّ إلا إذا بقي البناء الخارجيّ بناءً مهزوزًا متداعيًا».[1]

ويتجلّى هذا القانون بوضوح في قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وقد تناول العلاّمة (الطباطبائي) هذه الآية في سياق بيانه لتنزّه الله تعالى عن الظلم، مبيّنًا أنَّ الاستبدال لا يصدر عن حاجة أو افتقار، بل عن مقتضى الغنى والرحمة الإلهيَّين؛ إذ يقول: «ومعنى الآية: وربّك هو الذي يوصف بالغنى المطلق الذي لا فقر معه ولا حاجة، وبالرحمة المطلقة التي وسعت كل شيء، ومقتضى ذلك أنَّه قادر على أن يذهبكم بغناه ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق برحمته، والشاهد عليه أنَّه أنشأكم برحمته من ذرية قوم آخرين أذهبهم بغناه عنهم».[2]

ويكشف هذا النصّ أنَّ الأمم لا تمتلك حق البقاء الذاتيّ، بل يبقى حضورها التاريخيّ رَهْنًا بمدى احتفاظها بالمقوّمات التي تؤهّلها لأداء وظيفتها العمرانيّة. ولذلك يذكّر القرآن المجتمعات الإنسانيّة بأنَّ وجودها نفسه مسبوق بأمم أخرى أزيلت من موقعها ثم خَلَفَتها أمم جديدة في مسيرة التاريخ. ومن هنا، فإنَّ سُنّة الاستبدال لا تعني مجرّد فناء جماعة وظهور أخرى، بل هي انتقال الفاعليّة التاريخيّة من أمّة فقدت شروط النهوض والاستمرار إلى أمّة أصبحت أكثر استعدادًا لحمل المسؤوليّة الحضاريّة.

---

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص١٤٢.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٧، ص٣٥٦.

١- الاستبدال بوصفه نتيجةً لا سببًا

من الأخطاء الشائعة النظر إلى الاستبدال بوصفه حدثًا يفرض على المجتمع من الخارج، بينما يكشف السياق القرآنيّ أنَّه النتيجة النهائية لمسار طويل من التحوّلات الداخلية. ويتجلّى ذلك في قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ [هود: ٥٧]، وقوله سبحانه: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٨].

فالاستبدال هنا جاء بعد التوليّ والانحراف وفقدان الاستجابة لمقتضيات الرسالة، ما يدلّ على أنَّه يمثّل الأثر التاريخيّ النهائيّ لذلك المسار. وعليه، فإنَّ الأمّة حين تفقد شروط حمل الرسالة والقيام بوظيفتها التاريخيّة تصبح مؤهّلة لأنْ تُزاح من موقعها ليحلّ محلّها من هو أقدر على أداء تلك الوظيفة.

٢- التداول التاريخيّ وسنن انتقال القوة

ويتكامل مفهوم الاستبدال الحضاريّ مع مفهوم التداول التاريخيّ الذي يطرحه القرآن بوصفه سنّة عامّة تحكم حركة الأمم، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقد توقّف الشهيد السيد (محمد باقر الصدر) عند هذه الآية بوصفها من النصوص المؤسِّسة لفهم السُّنن التاريخيّة، مبيّنًا أنَّ النصر والهزيمة لا يجريان على أساس الانتماء المجرّد، بل على أساس الشروط الموضوعيّة التي تحكم حركة التاريخ، فيقول: «المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعيّة للنصر بحسب منطق سُنن التاريخ تفرض أن ينتصروا، وخسروا المعركة في أُحد حينما كانت الشروط الموضوعيّة في معركة أُحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة».[١]

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٥٠.

ثمّ يؤكّد أنَّ القرآن يربط النصر بقوانين موضوعيّة لا بمجرّد الانتساب، قائلاً: «لا تتخيّلوا أنَّ النصر حقّ إلهيّ لكم، وإنَّما النصر حقّ طبيعيّ لكم بقدر ما يمكن أن توفّروا الشروط الموضوعيّة لهذا النصر بحسب منطق سُنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونيًّا لا تشريعيًّا».[1]

ويصل (الصدر) إلى النتيجة النهائيّة لهذه السُنّة بقوله: «إذا لم يكونوا على مستوى مسؤوليّة رسالة السماء فإنَّ هذا لا يعني أن تتعطّل رسالة السماء، ولا يعني أن تسكت سُنن التاريخ عنهم، بل إنَّهم سوف يستبدلون... وسوف تأتي أمم أخرى قد تهيّأت لها الظروف الموضوعيّة الأفضل لكي تلعب هذا الدور».[2]

ويؤكّد العلاّمة (الطباطبائي) هذا المعنى في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾؛ إذ يفسّر المداولة بأنَّها «جعل الشيء يتناوله واحد بعد آخر»، ثمّ يقرّر أنَّ «السُنّة الإلهيّة جرت على مداولة الأيام بين الناس من غير أن تتوقّف على قوم ويذبّ عنها قوم».[3]

ومن هنا، فإنَّ التداول في المنظار القرآنيّ لا يقتصر على تعاقب الانتصارات العسكريّة، بل يشمل انتقال مواقع التأثير والقيادة والفاعليّة التاريخيّة بين الأُمم والجماعات. وقد تبقى الأُمّة موجودة جغرافيًّا وسكانيًّا، لكنّها تفقد مركزها الحضاريّ عندما تفقد الشروط التي كانت تؤهّلها لذلك الموقع. وعند هذه النقطة يلتقي التداول بالاستبدال بوصفهما تعبيرين عن قانون واحد يحكم انتقال الفاعليّة الحضاريّة بين الأُمم.

٣- الاستبدال وظهور البديل الحضاريّ

ومن الخصائص المهمّة لسُنّة الاستبدال أنَّ القرآن لا يكتفي بذكر زوال الجماعة التي

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٥٠.
٢ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٥٠-٥١.
٣ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٤، ص٢٨.

فقدت شروط الاستمرار، بل يتحدّث أيضًا عن ظهور البديل الحضاريّ. ويتجلّى ذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد رأى العلامة (الطباطبائي) أنَّ الآية تكشف عن سُنّة تاريخيّة تتعلّق ببقاء الرسالة واستمرار المشروع الدينيّ؛ إذ يقول: «إنَّ الله سبحانه... يشير في ملحمة قرآنيّة إلى ما يؤول إليه أمر هذه الموالاة من انهدام بنية السيرة الدينيّة وأنَّ الله سيبعث قومًا يقومون بالأمر ويعيدون بنية الدين إلى عمارتها الأصليّة».[1]

ويكشف هذا النص أنَّ الاستبدال لا يعني مجرّد إزالة جماعة من موقعها، بل إيجاد جماعة جديدة قادرة على حمل الأمانة التي عجزت عنها الجماعة السابقة. ولذلك لا تكتفي الآية بالإخبار عن مجيء القوم البديل، بل ترسم ملامحهم النفسيّة والخُلُقيّة والعمليّة، ما يجعلهم مؤهّلين لإعادة بناء المشروع الحضاريّ وتجديد فاعليّته التاريخيّة. وهكذا يرتبط التداول الحضاريّ في القرآن بظهور جماعة تمتلك المقوّمات الإيمانيّة والخُلُقيّة والعمليّة التي تؤهّلها لحمل مسؤوليّة العمران والشهادة على الناس.

٤- الاستبدال وفقدان المركز الحضاريّ

ومن أعمق ما تكشفه سُنّة الاستبدال أنَّ السقوط الحضاريّ لا يعني بالضرورة زوال الأمّة من الوجود. فقد تبقى الأمّة قائمة جغرافيًّا وسكانيًّا، لكنّها تفقد القدرة على التأثير وصناعة المستقبل. وهذا ما أشار إليه (ابن خلدون) حين لاحظ أنَّ الدول قد تستمرّ زمنًا بعد أن تفقد أسباب قوّتها الحقيقيّة، وأنَّ مظاهر البقاء قد تخفي وراءها حالة من الشيخوخة الحضاريّة.

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٥، ص٣٦٨.

ومن هنا، فإنَّ أخطر ما يصيب الأمم ليس فناؤها البيولوجيّ، بل فقدانها القدرة على إنتاج الأفكار والقيم والأنظمة التي توجّه التاريخ. وعند هذه النقطة يتحقّق الاستبدال الحضاريّ بمعناه العميق؛ إذ تنتقل قيادة التاريخ إلى غيرها.

٥- الاستبدال بوصفه النتيجة النهائيّة لمسار السقوط

وبذلك يتّضح أنَّ سُنّة الاستبدال تمثّل الحلقة الأخيرة في مسار السقوط الحضاريّ الذي يبدأ بالتغيير الداخليّ، ثم يتجلّى في الفساد والترف والاستكبار والظلم، حتّى تفقد الأمّة شروط البقاء التاريخيّ. وعند هذه المرحلة تنتقل الفاعليّة الحضاريّة إلى جماعة أخرى تمتلك المقوّمات التي فقدتها الأمّة المتراجعة. ومن هنا، لا يفسّر القرآن سقوط الحضارات بقوّة الخصوم وحدها، بل بفقدان المبرّرات الداخليّة التي كانت تمنحها القدرة على الاستمرار والقيادة.

سادسًا: تحلّل البنية الرمزيّة والمعنويّة بوصفه المرحلة الأخيرة في السقوط الحضاريّ

إذا كانت المباحث السابقة قد كشفت عن المسار الذي يبدأ بالتغيير الداخليّ ثم يتجسّد في الفساد والترف والاستكبار والظلم وينتهي إلى الاستبدال الحضاريّ، فإنَّ هذه المظاهر جميعها تعود إلى مستوى أعمق يتمثّل في البنية الرمزيّة والمعنويّة للمجتمع. فالحضارات لا تقوم على الاقتصاد والسياسة والقوّة العسكريّة وحدها، بل على منظومة من المعاني والقيم والتصوّرات التي تمنح الفعل الإنسانيّ اتّجاهه وشرعيّته. ومن هنا، فإنَّ أخطر ما يصيب الحضارات ليس تراجع قوّتها الماديّة، بل تحلّل المعنى الذي يمنح تلك القوّة وظيفتها وغايتها.

ولهذا، فإنَّ القرآن الكريم لا يفسّر السقوط الحضاريّ بوصفه انهيارًا للمؤسّسات فقط، بل بوصفه انهيارًا في منظومة المعنى التي تمنح تلك المؤسّسات مبرّر وجودها. فالانهيار

الخارجيّ ليس إلّا النتيجة الأخيرة لمسار طويل من التفكّك الرمزيّ والمعنويّ الذي يصيب وعي المجتمع وقيمه ومرجعيّاته.

وقد أشار الشهيد السيّد (محمد باقر الصدر) إلى هذا المعنى حين جعل المحتوى الداخليّ للإنسان أساس حركة التاريخ، مؤكّدًا أنَّ البناء الاجتماعيّ كلّه يرتبط بهذه القاعدة النفسيّة والفكريّة والروحيّة. فالتاريخ لا يتحرّك بالأشياء وحدها، بل بالأفكار والإرادات التي تمنح الأشياء معناها وتوجّهها نحو غايات محدّدة. ومن هنا تبدأ الأزمة الحضاريّة عندما تتعرّض هذه المنظومة للاهتزاز أو التفكّك، فتفقد الجماعة قدرتها على تحديد غاياتها الكبرى أو تضطرب معاييرها الأساس، فتفقد الحضارة روحها الداخليّة وإن بقيت أدواتها الماديّة قائمة.

١- اختلال الميزان وسقوط المرجعيّة

من أعمق المفاهيم القرآنيّة الكاشفة عن البنية الداخليّة للحضارات مفهوم «الميزان»، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧-٨].

ولا يقتصر الميزان في القرآن على معناه الحسّيّ، بل يشمل المعايير التي يُعرَف بها الحقّ من الباطل والعدل من الظلم. وقد أوضح العلّامة (الطباطبائي) هذا المعنى بقوله: «المراد بالميزان كل ما يُوزن، أي يُقَدَّر به، الشّيء أعمّ من أن يكون عقيدة أو قولاً أو فعلاً، ومن مصاديقه الميزان الذي يوزن به الأثقال».[١]

ثم يبيّن سعة هذا المفهوم بقوله: «فظاهره مطلق ما يُمَيَّز به الحقّ من الباطل والصدق من الكذب والعدل من الظلم والفضيلة من الرذيلة».[٢]

ويكشف هذا التفسير أنَّ الميزان في الرؤية القرآنيّة يمثّل المرجعيّة التي تضبط الفكر والسلوك والقيم والعلاقات الاجتماعيّة. ومن ثَمَّ فإنَّ الخلل الحضاريّ يبدأ عندما تختلّ

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٩، ص٩٧.
٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٩، ص٩٧.

المعايير التي يُقاس بها الحقّ والباطل والخير والشرّ، فتتشوّش المفاهيم ويصبح المجتمع عاجزًا عن تشخيص أزماته، وتشخيص الطريق المؤدّي إلى معالجتها.

ولهذا فإنَّ أخطر مراحل السقوط الحضاريّ ليست فقدان القوّة الماديّة، بل فقدان المرجعيّة التي يُحتكم إليها في تقويم الأفكار والأفعال؛ لأنَّ المجتمع الذي يفقد ميزانه يفقد في الوقت نفسه القدرة على المراجعة والتصحيح.

٢- من تحلُّل المعنى إلى تحلُّل العمران

وقد أشار القرآن إلى هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ**﴾ [النمل: ١٤]. فالآية لا تتحدّث عن جهل بالحقيقة، بل عن انفصال بين المعرفة والسلوك. فالحقيقة معروفة، لكن البنية النفسيّة والثقافيّة لم تعد قادرة على الاستجابة لها. والمشكلة هنا ليست في غياب البرهان، بل في وجود مانع داخليّ يمنع الإنسان من التسليم للحقّ رغم وضوحه. وتمثّل هذه الحالة إحدى أخطر مراحل الانهيار الحضاريّ؛ لأنَّ المجتمع يفقد عندها القدرة على التجدّد الذاتيّ. فكلّ حضارة تحتاج إلى آليّات للمراجعة والنقد والتصحيح، وعندما تتعطّل هذه الآليّات يبدأ الجمود الذي يقود في النهاية إلى السقوط. ومن هنا، كان القرآن يربط بين الهداية وبين البقاء الحضاريّ؛ لأنَّ الهداية تمثّل الضمانة الأساس لاستمرار العلاقة بين الإنسان والحقّ.

٣- الفكرة الدينيّة وحيويّة الحضارة

ولا يرتبط السقوط الحضاريّ باختلال الموازين الخُلُقيّة والاجتماعيّة فحسب، بل يرتبط أيضًا بفقدان الفكرة المركزيّة القادرة على توجيه المجتمع ومنحه معنى لحركته التاريخيّة. وفي هذا السياق تكتسب تحليلات (مالك بن نبي) أهميّة خاصّة؛ لأنَّها تركّز على الدور التأسيسيّ للفكرة الدينيّة في نشأة الحضارات واستمرارها.

ففي تحليله لمسار الحضارات يقرّر أنَّ البداية الحقيقيّة لأيّ نهضة لا تنبع من تراكم الوسائل الماديّة، وإنّما من الفكرة التي تعيد توجيه الإنسان نحو غايات تتجاوز المصالح المباشرة. يقول: «فالحضارة لا تنبعث ـ كما هو ملاحظ ـ إلّا بالعقيدة الدينيّة، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الدينيّ الذي بعثها».[١]

ثم يوسّع هذا المعنى فيقول: «فالحضارة لا تظهر في أُمّة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعةً ومنهاجًا، أو هي ـ على الأقل ـ تقوم أُسُسها في توجيه الناس نحو معبودٍ غيبيٍّ».[٢]

ويستشهد بالتجربة الإسلاميّة الأولى قائلاً: «ومن المعلوم أنَّ جزيرة العرب مثلاً لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدويّ يعيش في صحراء مجدبة... فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت راكدة خامدة... حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء... نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدّسة حضارة جديدة».[٣]

ويضيف: «فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربيّة على مسرح التاريخ حيث ظلّت قرونًا طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدّن والرقيّ».[٤]

ويكشف هذا التحليل أنَّ الفكرة المؤسّسة للحضارة ليست عنصرًا ثانويًّا في بنائها، بل هي المبدأ الذي يمنح سائر العناصر معناها واتجاهها. ومن هنا، فإنَّ تراجع الفكرة المركزيّة أو فقدان قدرتها على توجيه السلوك الفرديّ والجماعيّ يمثّل أحد المؤشّرات العميقة على بداية التراجع الحضاريّ. وهذا المعنى يلتقي بوضوح مع الرؤية القرآنيّة التي تجعل الهداية والحقّ والعدل والتقوى أُسُسًا للعمران الإنسانيّ.

---

١ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٥٠.
٢ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٥١.
٣ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٥١.
٤ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٥١.

٤- المرجعيّة والأزمة الحضاريّة

ولا تقتصر أزمة الحضارات على مظاهر الفساد والظلم واختلال الموازين الاجتماعيّة، بل تمتدّ إلى المستوى الأعمق المتعلّق بالمرجعيّة التي تستند إليها في تحديد الغايات والمعايير الحاكمة للسلوك الفرديّ والجماعيّ.

وفي هذا السياق يميّز (عبد الوهاب المسيري) بين ما يسمّيه «العَلمانيّة الجزئيّة» و«العَلمانيّة الشاملة»، فيقول: «نفرّق بين ما نسمّيه العلمانيّة الجزئيّة (فصل الدين عن الدولة)، و(العَلمانيّة الشاملة)، (فصل القيم الإنسانيّة والأخلاقيّة والدينيّة عن الحياة في جانبيها العامّ والخاصّ)».[١]

ثم يؤكّد أنَّ مسار العلمنة في التجربة الغربيّة تجاوز المجال السياسيّ والاقتصاديّ إلى مستويات أعمق تمسّ البنية الثقافيّة والإنسانيّة ذاتها، فيقول: «تصاعدت معدّلات العلمنة ... بحيث تجاوزت مجالات الاقتصاد والسياسة والأيديولوجيا، وأصبحت العلمنة ظاهرة اجتماعيّة كاسحة، وتحوّلاً بنيويًّا عميقًا ... فوصلت إلى وجدان الإنسان، وتغلغلت في أحلامه، ووجّهت سلوكه وعلاقته بأعضاء أسرته النوويّة، وقوّضت ما تبقّى من أخلاقيّات مسيحيّة أو حتى إنسانيّة».[٢]

ويشير هذا التحليل إلى أنَّ الأزمة الحضاريّة قد تبدأ عندما تفقد القيم والمعايير المتجاوزة قدرتها على توجيه الإنسان، فتتحوّل المنفعة والقوّة والرغبة إلى المرجعيّات الأساس المنظّمة للحياة. وهذا المعنى يلتقي مع الرؤية القرآنيّة التي تجعل اختلال المرجعيّة القيميّة مقدّمة لاختلال العمران نفسه.

٥- السقوط بوصفه انهيارًا للمعنى قبل المادّة

وبذلك يمكن الوصول إلى النتيجة المركزيّة لهذا المبحث، وهي أنَّ السقوط الحضاريّ

١ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج١، ص٦.

٢ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج١، ص١٩-٢٠.

في القرآن يبدأ من انهيار المعنى قبل انهيار المادّة. فالتحوّلات التي تصيب العقيدة والقيم والمعايير والرؤية الكونيّة هي التي تؤسّس لما يأتي بعدها من فساد وترف واستكبار وظلم واستبدال.

ولهذا، فإنَّ القرآن حين يدرس مصائر الأمم لا يركّز أوّلاً على حجم جيوشها أو ثرواتها أو عمرانها، بل يركّز على موقعها من الحقّ والعدل والهداية؛ لأنَّ هذه العناصر تشكّل البنية العميقة للعمران، وهي التي تحدّد في النهاية قدرته على البقاء أو السقوط.

ومن هنا، يمكن القول إنَّ السقوط الحضاريّ لا يبدأ من انهيار الدولة، بل من انهيار الإنسان؛ ولا يبدأ من فقدان القوّة، بل من فقدان المعنى الذي يوجّه القوّة؛ ولا يبدأ من سقوط المؤسّسات، بل من سقوط المرجعيّة التي تمنح المؤسّسات شرعيّتها ووظيفتها. وعند هذه النقطة يكتمل البناء النظريّ للدراسة؛ إذ يتبيّن أنَّ السقوط الحضاريّ ليس حادثةً مفاجئةً، بل مسارًا طويلاً يبدأ من الداخل، ويتدرّج عبر مستويات متعدّدة من الانحراف حتّى يبلغ مرحلته الأخيرة في تحلّل البنية الرمزيّة والمعنويّة التي كانت تمنح الحضارة معناها وسبب وجودها.

خاتمة

سعت هذه الدراسة إلى إعادة بناء الرؤية القرآنيّة للسقوط الحضاريّ من خلال السُّنن التاريخيّة والاجتماعيّة التي كشف عنها القرآن الكريم، مع الاستناد إلى التحليل السُّنَنيّ للشهيد السّيّد (محمد باقر الصدر)، والتفسير الاجتماعيّ والتاريخيّ للعلاّمة (الطباطبائي)، والإفادة من بعض الدراسات الحضاريّة المعاصرة.

وانطلقت الدراسة من فرضيّة مؤدّاها أنَّ القرآن الكريم لا يفسّر سقوط الحضارات بوصفه نتيجةً لعوامل خارجيّة طارئة أو أحداث سياسيّة وعسكريّة منفصلة عن البنية الداخليّة للمجتمع، بل يفسّره بوصفه مسارًا يبدأ من الإنسان نفسه، ومن التحوّلات التي تصيب وعيه

وقيمه وإرادته وعلاقته بالحق والعدل، ثم تنعكس تدريجيًّا على مختلف البنى الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة حتّى تبلغ مرحلة الانهيار الحضاريّ.

وقد بيّنت الدراسة أنَّ الآيتين الكريمتين: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، و﴿**ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الأنفال: ٥٣]، تمثّلان القانون التأسيسيّ الذي تنتظم تحته بقيّة السُّنَن الحضاريّة؛ فالتغيير الخارجيّ يبدأ من المحتوى الداخليّ للإنسان، وهو ما عبرّ عنه الشهيد (محمد باقر الصدر) بجعل الفكر والإرادة والمثل الأعلى أساس حركة التاريخ والبناء الاجتماعيّ.

كما كشفت الدراسة أنَّ الفساد في القرآن الكريم لا يمثّل مجرّد انحراف خُلُقيّ فرديّ، بل ظاهرةً حضاريّةً شاملةً تنشأ عندما ينحرف الإنسان عن مقتضيات الفطرة والعبوديّة، فتنعكس آثار ذلك على مختلف مجالات الحياة. وقد أبرزت نصوص العلاّمة (الطباطبائي) وجود ارتباط حقيقيّ بين أعمال الإنسان وبين الحوادث الاجتماعيّة والتاريخيّة، وأنَّ ظهور الفساد في البر والبحر يمثّل نتيجةً لاختلال العلاقة بين الإنسان والسُّنَن الحاكمة للوجود.

وأوضحت الدراسة أنَّ الترف والاستكبار يمثّلان مرحلةً متقدّمةً من مراحل السقوط الحضاريّ؛ فالترف لا يعني كثرة النعم فحسب، بل تحوّلاً في الوعي يولّد الشعور بالاستغناء عن الحق، ثمَّ يتحوّل إلى طغيان واستكبار ورفض للمراجعة والتصحيح. كما بيّنت أنَّ الظلم يمثّل التعبير العمليّ عن انفصال القوّة عن القيم، وأنَّ القرآن لا يربط السقوط بفقدان القوّة، بل بسوء توظيفها وانفصالها عن العدل والحق والهداية.

وفي ضوء ذلك تبيّن أنَّ سُنَّة الاستبدال الحضاريّ تمثّل النتيجة التاريخيّة الطبيعيّة لمسار السقوط الداخليّ؛ فالاستبدال لا يقع بصورة اعتباطيّة، وإنّما يأتي بعد أن تفقد الأُمّة شروط استمرارها الحضاريّ، فتنتقل الفاعليّة التاريخيّة إلى جماعة أخرى تمتلك المقوّمات الإنسانيّة والقيميّة اللازمة للقيام بوظيفة العمران والاستخلاف.

أما النتيجة الأعمق التي انتهت إليها الدراسة فتتمثّل في أنَّ السقوط الحضاري يبدأ من

انهيار المعنى قبل انهيار المادَّة. فالأزمة الحقيقيّة لا تبدأ حين تضعف الجيوش أو تتراجع الاقتصادات، وإنّما تبدأ حين يختلّ الميزان القِيَمي، وتفقد الأُمَّة مرجعيتها الخُلُقيّة، وتنقطع الصلة بين الإنسان والغايات الكبرى التي تمنح وجوده التاريخي معناه واتجاهه. وعند هذه المرحلة يبدأ العمران بفقدان روحه الداخليّة وإن بقيت مظاهره الخارجيّة قائمة زمنًا من الزمن.

ومن هنا، يمكن القول إنَّ القرآن الكريم يقدّم نظرية حضاريّة متكاملة في تفسير السقوط، تجعل الإنسان مركز حركة التاريخ، وتجعل السُّنن الإلهيّة الإطار الحاكم لها، وتربط مصير الحضارات بموقعها من الحقّ والعدل والهداية. وبهذا تتميّز الرؤية القرآنيّة عن كثير من التفسيرات الوضعيّة التي حصرت أسباب الانهيار في العوامل الاقتصاديّة أو السياسيّة أو الماديّة؛ إذ تعيد مركز التفسير إلى الإنسان نفسه بوصفه نقطةَ البداية في النهوض كما في السقوط.

النتائج

توصّلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١. أنَّ القرآن الكريم يقدّم تفسيراً سُنَنيًّا للسقوط الحضاري يقوم على وجود قوانين تاريخيّة ثابتة تحكم حركة المجتمعات والأمم.

٢. أنَّ التغيير الداخلي يمثّل القانون الأعلى الذي تنتظم تحته بقية السُّنن الحضاريّة، وأنَّ تحوّلات النفس الإنسانيّة تسبق دائمًا التحوّلات الاجتماعيّة والتاريخيّة.

٣. أنَّ المحتوى الداخلي للإنسان، كما قرّره الشهيد (الصدر)، يمثّل القاعدة الأساس للبناء الاجتماعي ولحركة التاريخ.

٤. أنَّ الفساد في القرآن الكريم ظاهرة حضاريّة بنيويّة، وليس مجرّد انحراف خُلُقيّ فرديّ.

٥. أنَّ الترف يمثّل مرحلة تحوّل النعمة من وسيلة للعمران إلى عامل من عوامل الانهيار.

٦. أنَّ الاستكبار يؤدّي إلى تعطيل آليات النقد والمراجعة داخل الحضارات، وهو ما يجعلها تفقد القدرة على تصحيح أخطائها.
٧. أنَّ الظلم يمثّل لحظة انفصال القوة عن القيم، ويُعَدّ من أهمّ مؤشّرات السقوط الحضاري في الرؤية القرآنيّة.
٨. أنَّ سُنَّة الاستبدال الحضاري تمثّل النتيجة التاريخيّة النهائيّة لفقدان الأُمَّة شروط البقاء والقيادة.
٩. أنَّ انهيار المرجعيّة القيميّة واختلال الميزان الخُلُقي يسبقان انهيار المؤسّسات السياسيّة والاقتصاديّة.
١٠. أنَّ السقوط الحضاري في القرآن يبدأ من الداخل، وأنَّ الهزيمة الخارجيّة ليست إلّا لحظة الانكشاف النهائي لمسار طويل من التآكل الداخلي.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدّمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ٢٠٠٤م.
- محسن الأراكي: سنن التطوّر الاجتماعي في القرآن الكريم، دانشگاه أديان ومذاهب، قم، ط١، ١٤٣٢ه.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، لا ت.
- محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، مؤسّسة النشر التابعة لجماعة المدرّسين، قم، لا ط، لا ت.
- محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنيّة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، لا ت.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، دار الشروق، بيروت، ط٣٥، ١٤٢٥هـ.
- عبد الوهاب المسيري: العلمانيّة الجزئيّة والعلمانيّة الشاملة، ج١، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.